الخطبة الثلاثون

الزوجة وخصائصها

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، الحمد لله كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه، الحمد لله حتى يرضى، والحمد لله إذا رضي، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه وسلم، وبعد:

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَا﴾ [الأعراف: 7/ 189].

وقال تعالى: ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجًا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحۡمَةًۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: 30/ 21].

قال تعالى في الآيتين: (ليسكن إليها)، (لتسكنوا إليها)، والسكن مكان الراحة والسعادة والسرور والطمأنينة، ولما قال سبحانه: (وجعل منها زوجها) بصيغة المفرد جاء السبب ليسكن إليها، ولما جاءت الآية بصيغة الجمع (أزواجًا) قال: لتسكنوا، أيضًا بالجمع، ولكن قال: (إليها) ولم يقل: (إليهن). ففي كلتا الآيتين جاءت: (إليها)، والله أعلم بالمراد، ويمكن أن يكون ذلك من تعظيم فعلها، أو أنها الأساس في السكن، وقد يُفهم أنه لا سكن بدونها -والله أعلم-.

- العلاقة بين الذكر والأنثى علاقة مقدّسة، وسماه الله ميثاق فقال: ﴿وَأَخَذۡنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ [النساء: 4/ 21]، فعقد الزواج ميثاق غليظ، أي: أنه عهد له قيمة كبيرة ومسؤولية، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «أحق الشروط أن توفوا به ما استحللتم به الفروج» البخاري (2721) - مسلم (1418).

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ﴾ [المائدة: 5/ 1]، وقال تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا﴾ [الإسراء: 17/ 34]، فالزواج سنة الله في خلقه، وسنة الحياة، ولا تستقيم الحياة إلا به، والأمر الطبيعي أن يكون للإنسان زوجة وشريكة له في حياته، يسعد بها وتسعد به، ويتعاونان على الحياة وإنجاب الأولاد، قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا﴾ [النحل: 16/ 72]، وقال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ جَعَلَكُمۡ أَزۡوَٰجٗا﴾ [فاطر: 35/ 11]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: 4/ 1].

وأمر رسول الله ﷺ بالزواج فقال: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر، وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء» متفق عليه.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «تزوجوا فإني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة» ن - د - حم، وفي الترمذي أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاثة حق على الله عونهم: 1 - المجاهد في سبيل الله، 2 - والمكاتب يريد الأداء، 3 - والناكح الذي يريد العفاف» يريد العفاف لنفسه ولزوجته، يريد العفاف حتى لا تتفشى الفاحشة، يريد العفاف حفاظًا على نظافة المجتمع وحفظ النسل وحفظ الأعراض، وحفظًا على الروابط الأسرية، وتطبيقًا لشرع الله وخوفًا من الحرام، وخوفًا من عقاب الله، وخوفًا من الخزي يوم القيامة.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تنكح المرأة لجمالها ومالها وحسبها ودينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك» البخاري ومسلم.

كثير من الشباب يخلطون بين الشهوة والجنس، وما يسمى بالحب، فترى الشباب يلهثون وراء ذات الجمال أو الجاذبية أو... أو ... ومن ذلك تتولد شهوة الجنس،

ويحسبون أنفسهم أنهم وقعوا في الحب، وأن ذات العينين الجميلتين أو القوام الرشيق هي صاحبة النعمة وصاحبة السعادة، ويحسبون أن الحياة الهانئة معها، والسعادة المطلقة التي ما بعدها سعادة، هذا الخلط وهذا الالتباس هو أساس المشكلة، وهو أساس كثرة الطلاق وتشرد الأبناء ووجود جيل فاسد، لأنه نشأ في بيئة فاسدة، وبيت غير مترابط، أو بيت فيه خلافات ومشادات ونزاعات، بيت ليس فيه سكنى ولا مودة ولا رحمة، لذلك قال عليه الصلاة والسلام: «فاظفر بذات الدين»؛ لأن الدين هو الأساس لوجود السكنى والمودة والرحمة، (تربت يداك) أي: افتقرت يداك وأصبحت مليئة بالتراب أي: لا شيء له قيمة إن لم تختر ذات الدين، إذا لم تختر ذات الدين افتقرت وأفلست؛ لأنه لا سكنى لك ولا راحة ولا طمأنينة.

فالجمال يذبل، والمال قد يذهب، والحسب والنسب ليس من قوام البيت ولا من أساساته الأصلية التي لا يكون الزواج السعيد إلا به، أما الدين والخوف من الله تعالى وطاعة المرأة لزوجها طمعاً في رحمة الله ورضوانه، حرصها عليه وعلى شرفه وأولاده وماله، تطبيقاً لدينها، وخوفاً من ربها، واحتساب الأجر عند الله وطمعاً في جنة عرضها السموات والأرض، فعن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا صلّت المرأة خمسها، وصامت شهرها، وحفظت فرجها، وأطاعت زوجها قيل لها: ادخلي الجنة من أي أبواب الجنة شئت» حم – ابن حبان – البزار – وصححه الأرناؤوط – سليم أسد، في موارد الظمآن.

وقال تعالى: ﴿فَٱلصَّـٰلِحَـٰتُ قَـٰنِتَـٰتٌ حَـٰفِظَـٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾ [النساء: 4/ 34]، (قانتات) أي: مطيعات لله ولأزواجهن، قاله ابن عباس رضي الله عنه، (حافظات للغيب) أي: لأنفسهن وشرفهن وعفتهن في حال غيبة أزواجهن، وحافظات لواجبهن تجاه أزواجهن في أموالهم وأولادهم ودينهم.

وهذا ينطبق مع حديث النبي ﷺ قوله: «خير النساء امرأة إذا نظرت إليها سرتك، وإذا أمرتها أطاعتك، وإذا غبت عنها حفظتك في نفسها ومالك» البيهقي – ابن جرير،

(بما حفظ الله) أي: إن الله حفظهن ورعاهن بحفظهن لأنفسهن، وأن الله سبحانه يحميهن ويوفقهن ويسعدهن جزاءً لطاعته وطاعة أزواجهن، فقد وصفهن بالقانتات أي: المطيعات له ولأزواجهن، فحفظهن ورعاهن لأن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

فعلاقة الزوج بزوجته علاقة مبنية على الحب والاحترام والصدق والوفاء والثقة، حتى في المجتمعات الكافرة إن لم يكن هناك وفاء وصدق وحب واحترام لا تستمر العلاقة، لكن الفرق في الأسرة الإسلامية المؤمنة في الحب والاحترام والوفاء والصدق؛ لأن هذا أساس العلاقة بين الزوج وزوجته، وبينهما وبين الله تعالى، خوفاً منه وخوفاً من عقابه، وطمعاً برحمته وجنة عرضها السموات والأرض.

وإلى جانب ذلك فالعلاقة الأسرية تتحلى فوق كل الصفات المذكورة تتحلى بالصبر والتضحية، فالحياة ليست على وتيرة واحدة، فهناك المرض والفقر والمصائب والنوازل، لأن الأصل هو قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾ [البلد: 90/ 4]، فكلا الزوجين بحاجة إلى كتف يسندون عليه رؤوسهم عند المصائب، لا بد من شريك يساندك ويؤازرك بمحبة وصدق وإخلاص ووفاء لك وخوف من الله وطمعاً برحمته.

فعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي ﷺ إذا ذُكِرَتْ خديجة رضي الله عنها وأرضاها أثنى رسول الله ﷺ عليها فأحسن الثناء، قالت: فغرت يوماً فقلت: ما أكثر ما تذكرها حمراء الشدقين، قد أبدلك الله عز وجل خيراً منها فقال عليه الصلاة والسلام: «والله ما أبدلني الله عز وجل خيراً منها، قد آمنت بي إذ كفر بي الناس، وصدقتني إذ كذبني الناس، وواستني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله عز وجل ولدها إذ حرمني أولاد النساء» البخاري ومسلم ومسند الإمام أحمد.

فهل رأيت الصدق والوفاء والصبر والتضحية؟ وهل رأيت اعترافه عليه الصلاة والسلام بجميلها وفضائلها وصبرها وصدقها ومواساتها رضي الله عنها وأرضاها؟ وقد أثبت عليه الصلاة والسلام لها الخيرية والمقام العالي.

أعود فأقول: يجب على الشباب أن يفرقوا بين الشهوات والنزعات الجنسية وبين الحب الحقيقي الذي تتمتع به الزوجة الصالحة، حيث أنه بهذا الحب تتحقق السكنى والرحمة والمودة، عندما ترعاك زوجتك في مرضك، أو ترعاها في مرضها، محبة وصبراً وتضحية من القلب وليس واجبًا، من القلب حقيقة تشعر بدفئها وحنانها هذه هي السكنى والمودة والرحمة.

عندما تحضر لك طعامك أو العكس تضع فيه من حبها وحنانها محبة ورضا تأكله أنت بالهناء والشفاء، هذه هي السكنى، وهذا هو الحب، تسمع منها الكلمة الطيبة وترى منها البسمة الطيبة الجميلة، والمعاملة المفعمة بالحب والحنان هذه هي السكنى والمودة والرحمة. وإذا غضب أحد الزوجين وتشاجرا –وهذا لا بد منه– فانظر إلى ما قاله ﷺ قال: «ألا أخبركم بنسائكم من أهل الجنة؟» قلنا: بلى يا رسول الله، قال ﷺ: «الودود الولود العؤود على زوجها، إذا غضبت من زوجها قالت: هذه يدي في يدك والله لا أذوق غمضاً حتى ترضى» صحيح ن – طب – من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، (لا أذوق غمضًا) أي: لا أنام حتى ترضى.

بربك أليس هذا هو الحب الحقيقي والذي جزاؤه الجنة؟ لأنه ﷺ: «قال: ألا أخبركم بنسائكم من أهل الجنة؟»، فهذه الزوجة بحبها لزوجها وحفاظًا عليه وعلى شعوره –مع أنها على حق وهو الذي أساء إليها– جاءت بدون مناكدة، ولا نفخ الشيطان في صدرها، ولا دعاها الشيطان وحظ النفس إلى معاندته وإيذائه، وإنما جاءت بنفس طيبة مطمئنة وتضع يدها في يده وتقول: والله لا أنام ولا أغفلُ حتى ترضى، فرضي الله عنها وجعلها في جنته، فهذا هو الحب، وهذا ما ثمرته الجنة، لذلك قال عليه الصلاة والسلام لعمة الحصين بن محصن رضي الله عنه عندما سألته في حاجة فقال لها رسول الله ﷺ: «أذات زوج أنت؟» قالت: نعم، قال ﷺ: «كيف أنت له؟» قالت: ما آلوه إلا ما عجزت عنه، فقال ﷺ: «فانظري أين أنت منه، فإنما هو جنتك ونارك» حم – البيهقي – صحيح، أي أنه

سبب لدخولك النار بسخطه عليك، أو أنه سببك لدخول الجنة برضاه عنك، طبعًا هذا ضمن المفاهيم الشرعية، فلا يأمرها إلا بما يرضاه الشرع، ولا ينهاها إلا بما نهى عنه الشرع وحرمه، لذلك الضوابط الشرعية هي التي تحكم العلاقة الزوجية.

لهذا قال تعالى: ﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ [البقرة: 2/ 221]، وأقول للشباب حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «استوصوا بالنساء خيراً» البخاري ومسلم، وعن عائشة رضي الله عنه قالت: قال رسول الله ﷺ: «خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي» صحيح الترمذي (3895) وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أُجرت عليها، حتى ما تجعل في فيّ امرأتك» البخاري.

وقال تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: 4/ 19]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: 2/ 237].

فَأَمَرَ الله سبحانه بحسن العشرة وحسن الصحبة، ولو أن هناك بعض المضايقات والخلافات اصبر وانظر إلى الجانب الإيجابي، هي زوجتك وهي شريفة عفيفة، ساترة لعيوبك، تقوم برعايتك ورعاية أولادك، فيها من الخصال الحميدة الكثير، فلا تتركها لخلاف صغير، وتهدّ عُش الزوجية، وتضيّع أولادك في سبيل نزوات، لذلك قال سبحانه: ﴿وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾، ولكن إذا كان الطريق مسدود، والمشاكل لا تحتمل، ولا بد من الطلاق، جاء الأمر الثاني من الله تعالى: ﴿وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾، إياك إياك أن تتنكر للمعروف الذي قَدّمته ولا تتنكر للخير الذي كان بينكما، وإياك وعدم الوفاء لها، وإياك والكذب، وإياك والفضيحة، إياك أن تهضم حقها من المهر أو النفقة، وإياك أن تسيء إلى سمعتها وعفافها وشرفها، تحذير من الله تعالى بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

والعلاقة الزوجية تحتاج إلى وقود، ووقودها الكلمة الطيبة التي تحمل حبًا صادقًا، فهذا رسول الله ﷺ يسأله عمرو بن العاص رضي الله عنه عن أحب الناس إليه؟ قال: «عائشة، فقلت: من الرجال؟ فقال: أبوها، قلت: ثم من؟ قال: عمر بن الخطاب، فعد رجالاً» البخاري (3662) - مسلم (2384).

ووقودها أيضًا القبلة والمداعبة، ولو كان صائمًا، كما ورد في صحيح مسلم وغيره، ووقودها أيضًا أن تمسك يدها وتمشي معها وتحادثها وتستمع إليها، وتخرج بها ليلاً كما في حديث أم زرع، ووقودها أيضًا أن تساعد أهلك أي زوجتك في البيت وفي المطبخ، فعن الأسود رضي الله عنه قال: سألت عائشة رضي الله عنها ما كان النبي ﷺ يصنع في بيته؟ قالت: «يكون في مهنة أهله -تعني خدمة أهله- فإذا حضرت الصلاة خرج» البخاري (6764) قال: (تعني: خدمة أهله) هذا شرح آدم بن إياس شيخ البخاري، كما جاء في الفتح.

ووقودها غض الطرف والتغافل عن الأخطاء والهفوات، جاء أبو العاص بن الربيع وأمه هالة أخت خديجة رضي الله عنها، جاء يطلب يد زينب بنت النبي ﷺ قبل البعثة، فقال عليه الصلاة والسلام: لا أفعل حتى أستأذنها، انظر إلى الاحترام والحق الذي للبنات، فاحمر وجه زينب لما سألها رسول الله ﷺ، وابتسمت وهو دلالة الرضا، ولما بُعث رسول الله ﷺ أسلمت خديجة وبناتها، وكان أبو العاص في تجارة إلى الشام، فلما عاد أخبرته زينب بإسلامها وإيمانها، فقال: لن أؤمن بأبيك ولا برسالته، وخرج مُغْضَبًا، فقابله سادات قريش وقالوا له: طلقها كما فعل عتبة وعتيبة، طلقا أم كلثوم ورقية بنات النبي ﷺ، وكان في كلامهما قلة أدب وغلظة، وأصروا على أبي العاص، فقال: لا والله لا أفارق صاحبتي، ولا يعوضني عنها أن لي أفضل امرأة في قريش، واستأذنت زينب بأن تبقى مع زوجها، حب ورعاية ومودة، فأذن لها رسول الله ﷺ، وجاءت غزوة بدر فخرج أبو العاص مع قومه لقتال النبي ﷺ، فوقع أبو العاص

في الأسر، ففدت زينب رضي الله عنها زوجها بقلادتها التي أعطتها إياها خديجة يوم زواجها، فبكى الصحابة لهذا الحب والفداء، فأطلقوا سراحه وردوا عليه ماله واشترط عليه رسول الله ﷺ أن يفارق زينب ويرجعها إلى المدينة مع أولادها علي وأمامة، وفعل ذلك أبو العاص، ثم قبيل البعثة خرج إلى الشام بتجارة، ولما عاد برزت له سرية من المسلمين فهرب، فلما كان الليل دخل المدينة خائفًا، وذهب إلى بيت زينب واستجارها فأجارته، فلما كان النبي بصلاة الفجر خرجت زينب وقالت: أنا زينب بنت محمد وقد أجرت أبا العاص بن الربيع، فلما سَلَّمَ رسول الله ﷺ من صلاة الصبح أقبل على الناس وقال: «أما والذي نفسي بيده ما علمت بشيء من ذلك حتى سمعت ما سمعتم، إنه يجير على المسلمين أدناهم»، ثم انصرف رسول الله ﷺ فدخل على ابنته فقال: «أي بُنيّة، أكرمي مثواه، ولا يخلصن إليك، فإنك لا تحلين له»، وقال عليه الصلاة والسلام: «إن هذا الرجل ما ذممته صهراً، وإن هذا الرجل حدثني فصدقني، ووعدني فوفى لي، فإن قبلتم أن تردوا إليه ماله وأن تتركوه يعود إلى بلده فهذا أحبّ إلي، وإن أبيتم فالأمر إليكم، والحق لكم، ولا ألومكم عليه»، قالوا: يا رسول الله بل نرد عليه ماله، حتى إن الرجل ليأتي بالحبل والشنة والأداوة، حتى ردّوا عليه ماله كله، ثم احتمل ذلك أبو العاص، وذهب إلى مكة وأدى إلى كل ذي مال ماله، ثم قال: يا معشر قريش، هل بقي لأحد منكم عندي مالاً؟ قالوا: لا، قال: فإني أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، وما منعني من الإسلام عنده إلا تخوفًا أن تظنوا أني أردت أخذ مالكم، ثم خرج حتى قدم على رسول الله ﷺ وردّ عليه الصلاة والسلام عليه زوجته، انظر إلى الرحمة والمودة، انظر إلى حسن المعاملة، انظر إلى الإخلاص والوفاء.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين